الفكاهة في شعر عرقلة الكلبي

د. نجية فايز الحمود

جامعة القدس المفتوحة/ جنين – فلسطين

Humor in the Poetry of Arkala Al-Kelbi

Dr. Najiya Faiz Al-Hmood
The Open University of Al-Quds / Janin – Palestine
naj_alhmood@yahoo.com

Abstract

Humor is an essential factor in reliving man and getting him out of the psychological pressure because of the social, economic and political circumstances. Thus, man may resort to humor to lessen his anxiety, tension and hopelessness. It is a source of joy and pleasure which only man can possess.

الملخص

يبدو أن الفكاهة عامل أساسيّ من عوامل ارتياح الإنسان وخروجه من دوائر الضغط النفسي الكثيرة في هذه الدنيا، ووسيلة ناجحة من أجل الخروج من كاهل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي يعيشها الإنسان في يومياته، فقد يلجأ الإنسان إلى الفكاهة– عادة – في هذه الأحوال؛ أجلَ التخفيف من حدّة قلقه، وشدّة توتره، وازدياد يأسه، وتقويم ما يعجز عن إصلاحه. ومن ثَمّ، فهي مصدر لانبعاث البهجة والسرور في نفس الإنسان، وهي وسيلة لتخفيف حجم الضغوط الخارجية الواقعة عليه، ولذلك، نرى أنها باتت من اختصاص الإنسان دون غيره من المخلوقات الأخرى حتى سمي حيوانا ضاحكاً.

يتمحور موضوع هذا البحث حول قضية (الفكاهة في شعر عرقلة الكلبي) الذي عُرف بخفة روحه وميله الشديد إلى التندُّر والفكاهة، فقد استلطفه الأيوبيون؛ فقربوه إلى مجالسهم، وكانوا يستمتعون بمجالسته ومنادمته ونوادره الفكهة.

اتخذ الشاعر من عيوبه الخَلْقِية موضوعاً رئيسا للسخرية والفكاهة. هذا فضلا عن سخريته كم الفقر و الأصحاب، ومن الحكام و الوزراء، وتندُّره ببعض الأطعمة، وأسماء الأشخاص من معاصريه.

اتبعت في بحثي هذا المنهج التاريخي والتحليلي الأدبي؛ فقد تحدثت فيه عن تعريف الفكاهة ونشأتها، وقدمت لمحة موجزة عنها في العصور التاريخية المختلفة. ثم حللت ظاهرة الفكاهة في شعر عرقلة صورها ونمطها، وحللت شاعرية الشاعر.

المقدمة

تعددت موضوعات الشعر في العصر الأيوبي، وجالت أقلام الشعراء في فنون الشعر المختلفة، وصورت الحياة بكل جوانبها المشرقة والمظلمة، فقد شهد هذا العصر ظروفاً قاسية، وأنواعاً من الظلم، والخلل الاجتماعي نتيجة الغزو الصليبي وهجماته المتكررة على بلاد المسلمين. وكانت الفكاهة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني؛ السخرية والاستهزاء والتهكم والدعابة من الموضوعات البارزة في هذا العصر، وامتلأت أشعارهم بها، بحيث لا تكاد تخلو من شعر كبار الشعراء الذين انطبعوا بطابع الجدّ، ومواكبة الحروب الصليبية، وتصويرها في أدبهم شعرا و نثراً، كالقاضي الفاضل وابن منير الطرابلسي وغيرهم.

تناول هذا البحث –في ظل السياق أعلاه– موضوع (الفكاهة في شعر عرقلة الكلبي– حسان بن نمير بن عجل) شارحاً تعريفها، وذاكراً نشأتها، ثم مبيناً طبيعة الفكاهة في العصر الأيوبي بياناً خاصاً. مكثّفا النقاش في الفكاهة والسخرية اللتين انماز بهما شعر عرقلة الكلبي، ولا سيما مظاهرها من حيث: سخرية الشاعر المنبثقة من صفاته الخَلْقية (العور والقصر)، ومن الفقر والأصحاب، ومن التندُّر في الأطعمة، ومن أسماء الأشخاص من معاصريه، ومن بعض الوزراء والحكام.

لعلّ ما يميز البحث من غيره تفرّده في اتباع المنهج التاريخي والتحليل الأدبي في مناقشة مكونات متن البحث، وقضاياها الفرعية المتواترة بين الفصول؛ تجلية لصورة الفكاهة في عصر الشاعر وفي شعره. وبيان مصادرها التي وفّرت له أرضية خصبة في استعمالها في معظم شعره، مما بات يوصف بها رمزًا دالاً على شاعريته.

الفكاهة لغةً واصطلاحاً

ورد في معجم الصحاح أنّ كلمة (فكاهة) اشتقت لفظًا ومعنىً من " الفاكِهَةُ المعروفةٌ، وأجناسها الفَواكِهُ .والفاكِهانيُّ بالضم: الذي يبيعها. والفُكاهَةُ بالضم :المُزاحُ .والفَكاهَةُ بالفتح: مصدر فَكِهَ الرجلُ بالكسر، فهو فَكِهٌ، إذا كان طيِّب النفس مَزَّاحاً. والفَكِهُ أيضاً :الأشِرُ البَطِرُ. وقرئ قولُه تعالى: "ونَعْمةٍ كانوا فيها فَكِهينَ"(الدخان: ٢٧) أي أشرين .و"فاكِهينَ "أي ناعمين .والمُفاكَهَةُ :الممازحة. وتَفَكَّهَ : تَعَجَّبَ، ويقال تَنَدَّم. قال تعالى" :فَظَلْتُمْ تَفَكَّهونَ "(الواقعة: ٦٥) أي تَندمون. وتَفَكَّهْتُ بالشيء :تَمَتَّعْتُ به. أبو زيد :أفْكَهَتِ الناقة، إذا دَرَّت عند أكل الربيع قبل أن تضع، فهي مُفْكِهَةٌ"[١]. وجاء المعنى نفسه في المعجم الوسيط، حينما ذكر أنّ الفكاهة هي المُزاح، والفُكاهَةُ ما يُتمتَّعُ به من طُرَفِ الكلام[٢].

ولو نُظر إلى معاجم اللغة الأخرى لوُجد أن كلمة الفكاهة يندرج تحتها معاني كثيرة منها: التهكم والسخرية والاستهزاء الذي يبعث على الضحك؛ لأنها جميعا تصبّ في المعنى نفسه. فمن معانيها أيضا السُخْرِيَة: التي هي مصدر سَخِرَ، سُخرية: (اسم)، السُّخْرِيَة، السُّخْرِيَّة، سُخْرِيَّة: الهُزْء والتهكّم، سخِر بمنافسِه أو سخِر من منافسِه: هزِئ به، ولذَعه بكلام تهكّميّ، احتقره سخر من الآخرين[٣]، فقَالَ تعالى: "إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ"(هود، آية:٣٨). وأما (الاستهزاء) في لسان العرب فيذكر أن معناها مأخوذ من: هزأ" **الهُزْءُ** والهُزُؤُ: السُّخْرِيةُ. هُزِئَ به ومنه. وهَزَأَ يَهْزَأُ فيهما هُزْءاً وهُزُؤاً ومَهْزَأَةً، وتَهَزَّأَ واسْتَهْزَأَ به: سَخِرَ. كما في قوله تعالى:" إِنما نَحْنُ مُسْتَهْزِئون، اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بهم"[٤].

وعرّف ابن حجة الحموي التهكُّم بقوله إنّ: "التهكُّم في الأصل، التهدّم. يُقال تهكَّمت البئر، إذا تهدَّمت، وتهكّم عليه إذا اشتدّ غضبه، والتهكُّم المحتقر. قال أبو زيد: تهكَّمت غضبت، وتهكَّمتُ تحقَّرت، وعلى هذا يكون المتهكّم لشدة الغضب قد أوعد بالبشارة، أو لشدة الكبر، أو لتهاونه بالمخاطب قد فعل ذلك، فهذا أصله في الاستعمال"[٥]. لعلّ التجوالة المعجميّة الموجودة أعلاه أظهرت – بوضوح– أن الاستهزاء والتهكم والسخرية تجمعها علاقات ترادفية لا فروق مائزة بينهما في المعنى؛ لكونها تشترك في حمل معاني التهكم اللاذع، والضحك الساخر، التي جميعها تندرج تحت الفكاهة.

نشأة الفكاهة:

عاش المجتمع الجاهلي حياة غير مستقرة، سيطرت عليها المفاهيم البدائية، كالقوة والحرب والسلم النهب، وهي القيم الحياتية التي سعى المجتمع الجاهليّ إلى ترسيخها. وكان بسببها تنشب نار الحرب بينهم، والشعراء يواكبون هذه الحروب، كلٌّ يفخر بقبيلته، ولذلك، لم يكن الجوّ مواتيا لظهور الفكاهة في هذا العصر، إلا ما كان من التهكُّم والفكاهة الجماعية من قبيلة على أخرى، إن شعرا كان، أو نثرا، فبرزت الفكاهة التي تكون على شكل سخرية واستهزاء مضحك، لعلّ تسمية قريش بسمك القرش من هذا الباب ؛لأنها القبيلة المسيطرة في العصر الجاهلي، أو السخرية من طعامها الذي كانت تُكثر من أكله، وسُميت به وهو (السخينة)[٦]. ولم تقتصر الفكاهة على قبيلة قريش، بل تعدّتها إلى غيرها من القبائل. وتعمل الفكاهة في هذا العصر على تقوية العلاقات الاجتماعية، والعمل على وحدة القبيلة وتماسكها، وكانت –في غالبيتها– موصوفة بأنها "تهكّمية، تجسّد العيوب، وتبالغ في تصوير الانحراف والخطأ"[٧].

(١)الجوهري، الصحاح، مادة (فكهة).
(٢)المعجم الوسيط، مادة (فكهة).
(٣)معجم المعاني الجامع، مادة(سخر) http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar.
(٤)ابن منظور، لسان العرب، مادة(هزأ).
(٥)الحموي، ابن حجة، خزانة الأدب؛ شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩١، ج١، ص٢١٥.
(٦)نفسه: ص(د).
(٧)ينظر: قزيحة، رياض، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص٧٢-٧٩.

والفكاهة تعيش في أجواء الاستقرار، والدعة والراحة، ولذلك، فإنّ العصر الإسلامي منح المجتمع الإسلامي استقرارًا كبيراً في المدينة المنورة، وساد فيه الجو الاجتماعي نوعا، فكثر – بذلك– الهدوء والارتياح، واللجوء إلى المزاح واللهو البريء، والهدف من ذلك، هو توثيق أواصر العلاقة، وتقوية عرى المحبة بين المسلمين، الذين يعملون على نشر الدعوة في ظل دولة إسلامية ناشئة، فظهرت شخصيات فكِهة مثل أشعب بن جبير، وغيره(١).

ووُظفت لفظة الفكاهة ومشتقاتها في القرآن الكريم تحمل مدلولات لغوية أخرى – غير الذي مرّ ذكره– فقد أمرنا الله– سبحانه وتعالى– بالتفكه في كتابه العزيز، ومنها التعجبّ؛ إذ يقول:" ﴿أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون"(الواقعة، آية:٦٣–٦٤) فقال بعضهم: معنى ذلك: فظلتم تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم من المصيبة باحتراقه وهلاكه(٢).

وكان الرسول– صلى الله عليه وسلم– يضحك إذا وجب الضحك لأمر المسلمين، وهو "يبتسم من أجل ترسيخ الوقار والتفاؤل في نفوس المسلمين"(٣) وكان–عليه السلام– يقول:" روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلَّتْ عَمِيَتْ"(٤)

وانتشرت الفكاهة على رغم تعقيد الحياة الاجتماعية في العصر الأموي، وانتشار الترف والغنى، وكثرة المغنّين المضحكين، الذي كان همّهم الأول إدخال البهجة والسرور على قلوب الخلفاء والوزراء والحكام، وبظهور طبقات اجتماعية مختلفة فيما بينها، ومتباينة في وضعها الاقتصادي، وأصبحت الفكاهة للتكسُّب والتعيُّش، واتخذوا منها سلاحًا رامزاً؛ للتعبير عن سوء أوضاعهم المعيشية. وكثر في العصر العباسي الصراع الديني والثقافي والاجتماعي، وبلغ التعقيد غايته، فكان الجوّ ملائما؛ لتطوّر الفكاهة وازدهارها، وتصويرها لما استجدّ فيه من أحداث، ساعد على ذلك حياة الترف والبذخ التي شاعت في قصور الخلفاء والوزراء(٥).

توطئة:

لعلّ بذرة وجود أدب الفكاهة في العصر الأيوبيّ كانت متحصلة في غرض الهجاء، ولذلك، فإن طابع الهجاء في العصر الأيوبي اختلف عن غيره في مضمونه وخصائصه عما عرف من هجاء في العصور السابقة، كهجاء جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم؛ فقد تعرض الشعراء لهجاء الأشخاص والمساكن والحمامات وغيرها(٦). وأما الهجاء في العصر الجاهلي فقد عدّ هجاء سلبياً؛ لأنه ينصبّ على إعطاء صورة لحياة الناس في ذلك العصر، وصراعهم على لقمة العيش، وهو بذلك يختلف عن الهجاء الذي يسميه إيليا حاوي الهجاء الحضري، الذي يشعر الإنسان بمعنى وجوده(٧). وانتقاد سلوك إنساني معيّن من قبح أو غيره "يُعدّ نقداً إنسانيا بنّاء، لا يجرح كما يجرح الهجاء؛ لأنه في جوهره قوة لتصحيح السلوك وتعديله إلى الأحسن والأمثل، وتمنح الناقد صفة القدرة على الإدراك الموضوعي، والنظرة الثاقبة، الخالية من مظاهر التشويش الانفعالي والاضطراب العاطفي"(٨).

ولعل سوء الأوضاع الاقتصادية والظلم الاجتماعي الذي كان يعيشه الناس في ذلك الزمن؛ كان سببا أساسيا لاتجاه الشعراء للنظم في مثل هذا اللون من الهجاء. هذا فضلاً عن تفاوت الناس في عيشهم، وحصولهم على المراتب العليا، بغض النظر عن علمه وأدبه وذكائه؛ فنتج عن ذلك الإعلاء من شأن بعضهم على حساب الآخرين، وصار الشعراء يترصدون لهذه الفئة، ويتعقبونهم بهجاء قادح كله سخرية وتهكم؛ لفضح أمرهم ومعاييهم(٩). وقد عدّ إيليا حاوي أن هذا الهجاء هو هجاء إيجابي؛ لأنه يعكس تجارب الشعراء

(١)اليافي، عبد الكريم، دراسات فنية في الأدب العربي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م ص٣٤٥، ٣٥٤. ينظر: قزيحة، رياض، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي، ص١٤٤-١٥٠.

(٢)تفسير الطبري
.http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=4728&idto=4728&bk_no=50&ID=4785

(٣)عبد الكافي، إسماعيل عبد الفتاح، الفكاهة والألوان، هبة النيل العربية للنشر والتوزيع، الجيزة، ٢٠١٠، ص ٣.

(٤)ابن عبد ربه، العقد الفريد؛ تحقيق محمد عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م ج٨، ص٨٢.

(٥)ينظر:قزيحة، رياض، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي، ص١٩١-١٩٨.

(٦)سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٧، ص٢٣٦.

(٧)حاوي، إيليا، فن الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٩٨-١٤١٨هـ، ص٨.

(٨)توفيق، نجيب، الفكاهة والظرفاء أيام زمان، المكتبة الأزهرية للتراث، ط١، ١٩٩٨-١٤١٨هـ، ص٥.

(٩)سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، ص٢٣٨.

وحياتهم"، ويبين حقد الفرد أسباب اللجوء إلى هذا الشعر الهزلي هو إحساسه بعدم بلوغه لمصاف الشعراء الفحول؛ فيتّخذ من هذا الشعر وسيلة، ليتميّز بها، ويشتهر أمره بين الناس[١]. وإن كانت الفكاهة تحمل الطابع الشخصي لصاحبها، إلا أن ذلك لا ينكر أن هناك نوعاً خاصاً من الفكاهة ينتشر في عصر أكثر من غيره[٢].

وقد كثر شعر الفكاهة في شعر شعراء مصر والشام، الذين عبّروا عنها بأسلوبهم الخاص، وكانت ظاهرة عامة في أشعارهم، وامتدت الفكاهة والدعابة في أشعارهم منذ العصر الفاطمي إلى أيام المماليك[٣]. فالفكاهة تكثر حيث يكون الضغط والقلق؛ ليتمّ تجاوزه والابتعاد عنه بما لا يستطيعون التعبير عنه بصراحة. فيجدون فيها متنفسا لهم للتعبير عن واقع مرير يعيشونه[٤]؛ لأن الضحك يعمل على تحقيق التوازن العاطفي، والتكامل النفسي والاجتماعي، وهو "ظاهرة تولّدها الطبيعة في شعور الإنسان... والطبيعة تحمل في جنباتها تلك القوى الهزلية أو الفكاهية التي تجعلنا نستجيب لها بالضحك". ويعمل على تخفيف ضغوط الحياة، وحدّة القلق وإراحة الدماغ[٥]. ويعمل على تجديد نشاط الإنسان، ويخفف من آلامه وأيامه المُثقلة بالهموم والمتاعب، ويُروِّح عن النفس[٦]. يؤكّد ذلك قول الجاحظ –الذي اشتهر بالفكاهة في العصر العباسي– عن الضحك: "وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً، ومن مصلحة الطباع كثيرا، وهو شيء في أصل الطباع، وفي أساس التركيب؛ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي، وبه تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوّته"[٧]. وتشير دراسات علم الاجتماع إلى دراسة علاقة الفرد بالآخر، والمؤثرات التي تُؤثّر على هذه العلاقة سلبا أم إيجابا" ولما كانت الفكاهة تجعلنا نضحك من شخص آخر؛ فتزيد في هذا البعد المعنويّ بيننا وبينه أو تنقصه، ظهر لنا أن جذور الفكاهة في الأصل اجتماعية عميقة"[٨]. ويضيف (برغسون) جانبا اجتماعيا آخر للضحك، وهو تفاعل الفرد مع الجماعة؛ ليتمّ تذوّق الضحك، ويحدث صداه في الآخرين، والفكاهة تُغذّي الروح، كما يُغذّي القوت البدن في ظلّ الحياة التي نعيشها[٩].

الفكاهة والسخرية في شعر عرقلة الكلبي:

البدء يكمن في تقديم حياة الشاعر في سطور تعريف قليلة، لعلها تظهر الفكاهة أصلا من أصول حياته، فهو حسان بن نُمير بن عجل، أبو النَّدى الكلبي الدمشقيّ[١٠]، ويرجع نسبه إلى بني كلب وَبَره من الجُلاح، وهي بطن من بني كلب[١١]، وقد اشتهر بين الناس بعَرْقَلَة الدمشقيّ "ويُقال له عرقلة من حاضرة دمشق" حتى غلب اللقب على اسمه[١٢]. ولقب عرقلة الأعور؛ لأنه كان قد فقد إحدى عينيه أثناء رحلته إلى حلب، ومضى الشاعر يتنقل بين الموصل وبغداد، ومن ثم إلى مصر[١٣]. اتصل بالأيوبيين وقرّبوه إليهم، وبخاصة السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكان يكثر من مجالستهم ومنادمتهم، وقد وصفه العماد الأصفهاني بقوله:" شاعر مستطرف الهجاء"[١٤]. وأضاف أنه اطلع على ديوان شعر عرقلة، وأن قصائده كانت قصيرة" وكلها نوادر وكلام مضحك"[١٥]. إلا أن هذا القول

(١)الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ج٣، ص١٤٠.
(٢)اليافي، عبد الكريم، دراسات فنية في الأدب العربي، ص٣٣٦.
(٣)الفقي، محمد كامل، الأدب العري في العصر المملوكي، دار الموقف العربي للصحافة والنشر والتوزيع، مصر، ص١٤٧.
(٤)اليافي، عبد الكريم، دراسات فنية في الأدب العربي، ص٤١٣-٤١٤.
(٥)ينظر:عبد الكافي، إسماعيل عبد الفتاح، الفكاهة والألوان، ص٦-٩.
(٦)جروس، بُرس، أحلى طرائف ونوادر الجواري والنساء، طرابلس، لبنان، ص٥.
(٧)الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البخلاء، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ط٢، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م، ص٢٤.
(٨)اليافي، عبد الكريم، دراسات فنية في الأدب العربي، ص٣٣٥.
(٩)نفسه، ص٣٣٥-٣٣٦.
(١٠)الصفدي، صلاح الدين خليل بن إيبك: الوافي بالوفيات؛ تحقيق أحمد الأرناؤوط وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ج١١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ص٢٨١.
(١١)الأصفهاني، العماد: خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، تحقيق د. شكري فيصل، المطبعة الهاشمية بدمشق، ط١، ج١، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م، ص١٧٨.
(١٢)الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ج٥، ص٦٤.
(١٣)ضيف، شوقي: عصر الدول والامارات، الشام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٢٢٨.
(١٤)الأصفهاني، العماد: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص١٧٨.
(١٥)نفسه، ص١٨٣.وينظر ترجمة الشاعر: ابن العماد، شذرات الذهب، دار الفكر، ج٤، ص٢٢٠، الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار المعارف للملايين، بيروت، ط١٤، ١٩٩٩، ج٢، ص١٧٧.

وإن صدق في الحكم على طول القصائد، إلا أنه لا ينطبق على موضوعات شعره؛ لأن هناك مقطوعات كثيرة يبتعد فيها الشاعر عن النكتة، على وفق ما تقتضيه طبيعة الموضوع، ولا سيما التي يطلب الرفد والعطاء[١]. "على أن عرقلة قد يستسلم للنكتة؛ فيبرع بها، ويتّخذ من عيوبه موضوعا لشعره؛ فيحسن التصوير، ويبدع في إدخال السرور على القلوب، وإن ما قصد إليه صاحب الخريدة وأطلقه على شعر الشاعر كلّه من باب التغليب"[٢]. فأدب هذا العصر كان أدب ترف وتسلية؛ ليتماشى مع الطبقة الحاكمة، يتلاعب فيه الشعراء بالألفاظ والمعاني، على سبيل التفكّه والدعابة والسمر، واللغز والتعمية، وعلى الشاعر أن يُبدع في ذلك؛ ليحظى بمنزلة رفيعة لدى المسؤولين، ويقرّبونه إلى مجالسهم وأسمارهم[٣]. "فالظريف يشدّ الناس إليه بجاذبية قلّ أن تُقهر. فحيثما وجد في الاجتماعات أو المجالس أو الحلقات أو السهرات، يخلق جوّا مرحا مُريحا، ويستقطب انتباه الموجودين، ولا يدعهم يملّون سماعه... والنكتة الموفقة التي يطلقها، تسري في الناس كالنار في الهشيم، وسرعان ما تتناقلها الألسن والأقلام"[٤].

سخرية الشاعر من نفسه وعيوبه:

اتصف عرقلة بالقِصر والعور بعد أن فقد إحدى عينيه حين سافر إلى حلب– كما سبق بيانه– وأشار إلى صفاته الأصفهاني بقوله:" لقيته شيخا خليعا رَبْعَةً مائلا إلى القصر، أعور مطبوعاً، حلو المنادمة، لطيف النادرة"[٥].

ساءت أوضاع الشاعر المادية، وتراجعت أحواله، بعد أن كان في المقدّمة، وجفاه من حوله، وأصيب بالعور بعد سفره، ولو اضطر للسفر إلى بلد أخرى؛ لأقدم هو بنفسه على العمى، مستلهما في ذلك التراث الديني، ومتناصاً مع معجزة المسيح بن مريم– عليه السلام–، الذي كان يبرئ الأعمى والأبرص، حين عجز الأطباء عن شفائه، فهو يقول[٦]:

جفاني صديقي حين أصبحتُ مُعْدَماً وأَخَّرَني دهري وكنت مُقَدَّما

وسافرتُ جهلاً فانعَوَرْتُ وإن أَعُدْ إلى سَفْرَةٍ أُخْرى قَدِمْتُ على العمى

وكم من طبيبٍ قال: تبرا أَجَبْتُه كَذَبْت ولو كُنْتَ المسيحَ بن مَريما

اتخذ عرقلة من عيوبه الخَلْقية وسيلةً للسخرية من نفسه، وإضحاك الآخرين، وكسب عواطفهم، والتعبير عمّا يعتريه من همٍّ وتعذيب؛ للوصول إلى قلب الممدوح صلاح الدين الأيوبي، وهو لا يُعدّ نفسه رجلاً كاملاً بل نصف رجل؛ لأنه بعين واحدة، وقد شبه صبره بصبر أيوب– عليه السلام– على مرضه، حيث يقول[٧]:

أقول والقلب في همٍّ وتعذيب يا كُلَّ يُوسف ارحم نصف أَيُّوبِ

ويحاول الشاعر أن يُعوّض عن هذا النقص في شعره، ويُعلي من منزلته بين الشعراء؛ ليقول بأن الأمور لا تقاس بشكلها، وإلا لما تفوّق الأسد على الجمل رغم كبر حجمه، فهو يقول[٨]:

ولا تعجبنَّ لِقِصَري عند طولِهِم فالفَخْر لِلَّيْثِ، ليس الفَخْر للجَمل

على الرغم من أنه كان يرى في هاتين الصفتين تقبيحا لمنظره، فأن تسمع به خيرٌ من أن تراه، وهو يتناصّ مع المثل العربيّ الذي عُد شاهداً نحويا: (تسمعَ بالمعيديّ خيرٌ من أن تراه) فهو يقول[٩]:

مولاي إن الكلبي عَرْقلة مثل المعيديّ صاحب المثل

(١)الكلبي، عرقلة: حسان بن نمير، الديوان، ص و.
(٢)نفسه، ص ز.
(٣)سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، ص١٦٨-١٦٩.
(٤)أبو جودة، بديع وآخر، اضحك مع ألف نكتة ونكتة، دار الجودة، معهد الجودة، لبنان، ط١، ١٩٩٧، ص٦.
(٥)الأصفهاني، العماد: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص١٧٨ ينظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن إيبك: الوافي بالوفيات؛ تحقيق أحمد الأرناؤوط وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ج١١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ص٢٨٢.
(٦)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٩٣.
(٧)نفسه، ص١٣.
(٨)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٨٠.
(٩)نفسه، ص٨٦.

ويندرج تحت "هجاء السخرية والتندُّر" الهجاء الذي يسخر فيه الشاعر من عاهات الآخرين وعيوبهم، فيُحدّق بهم، ويستهزئ من نقصهم وسخفهم، وقد وقعوا "تحت وطأة النشاز... والعاهة" ويكون باعثه عند الشاعر اللهو والتندر للفكاهة والاستمتاع، لا الحقد أو الغيظ. ولا يصدر إلاّ عن شاعر مُحترف، وفي البيئات المتحضرة التي تتيح للشاعر " استطلاع مكامن العاهة والسخرية والتندّر"(١).

وتبدو فكاهة الشاعر في وصفه لغلام طويل ونحيل، يدرك مَنْ يراه مع الشاعر مدى الفرق بينهما. ويشبه الشاعر نفسه وهو معه بالأعور الدجال يمشي خلف عوج بن عناق الذي عُرف في الأساطير بطوله البالغ العجيب، حيث يقول(٢):

لي حبيبٌ قدّهُ قُدَّ من السُّمْر الرِّقاقِ

مَنْ رآه ورآني قال ذا غير اتفاقي

أعورَ الدَّجال يمشي خَلْف عوج بنُ عناقِ

وفي معظم الأغراض الشعرية التي نظم فيها الشاعر، يحاول أن يسخر من نفسه، ويتخذ من عوره وسيلة للتندّر والفكاهة. كما يبدو لنا في مدحه لابني شوتكين وهو في بعلبك، واصفا شوقه وحبه لهما، فهو يقول(٣):

أُحِبُّكُم مثلَ عيني اليمين وإلا غَدَتْ مثل عيني الشمال

وفي غزل الشاعر وحديثه عن شدة شوقه؛ لفراق الأحبة يشير بأنه لا يستطيع النوم، وقد ذرف الدموع الغزيرة عليهم وهو بعين واحدة، فهو يقول(٤):

وكيف يقوى بِسُهادٍ على دمعٍ غزيرٍ مَنْ لَهُ فَرْدُ عَيْن

وفي قصيدة للشاعر يمدح فيها وزير الموصل جمال الدين، يتساءل مندهشا كيف يعجب الأعور بمحبوبه الأحول، حيث يقول(٥):

يا لائمي هل رأيْتَ أعْجَبَ مِنْ ذِي عَوَرٍ هائمٍ بذي حَوَلِ

ومن قول الشاعر في مدح الأمير مجاهد الدين بُران بن علي، يصف عظمة ممدوحه ومنزلته الكبيرة حتى في عيون الأعداء، فيرونه عظيماً كما يرى الأحول القمر وحده في السماء. يقول الشاعر(٦):

يَزدادُ في أعين الأعداء منزلةً كأنه قمرٌ في عَيْن ذي حَوَلِ

ويرى رياض قزيحة أن تهكم الإنسان من نفسه من أكثر الفكاهات التي تبعث على الضحك؛ لأنها تعكس خفة روح الشاعر، وبعد نظره؛ لأنه بدأ بنفسه أولاً، وتفكّه بها قبل أن يتفكّه من الآخرين." وقد يعمد إلى تصوير ذاته في مواقف الإحراج والضعف والارتباك والغفلة والتغافل، فيكون تهكمه ثأراً من الذات وقصاصاً لها، ووسيلة للتنفيس عن نفسه، وللسخر من المجتمع وأحداث الحياة."(٧)

ولا يتوانى الشاعر عن السخرية والتهكم حتى في الرثاء، يتضح ذلك من رثائه لعَيْن الأمير أبي بكر الناشئ التي انقلعت؛ لإصابته بالعَيْن لكثرة حسنه، فهو يقول(٨):

طَرْفُ أبي بَكْر وهو مُنطَرفٌ بِكَفِّهِ للقضاء والحين

لكنه زاد في ملاحَتِهِ فانْقَلَعَتْ عينُه من العَيْن

وتبدو بهجة الشاعر في رثاء أحدهم، وقد كان يكثر من شتم الخَلق؛ فكانت عاقبته القتل. حيث يقول(١):

(١)حاوي، إيليا، فن الهجاء وتطوره عند العرب، ص١٠.
(٢)نفسه، ص٦٧.
(٣)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٧٤.
(٤)نفسه، ص٩٦.
(٥)الأصفهاني، العماد: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص١٨٠.
(٦)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٧٩.
(٧)قزيحة، رياض، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي، ص٢٨٤.
(٨)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٩٦.

لقد حَسُنَتْ به اليوم المراثي كما حَسُنَتْ به أمس الأهاجي
ولكن لجَّ في شتم البرايا وكان القتلُ عاقبةَ اللَّجاج

لعل ما يميز شعر الفكاهة في شعر عرقلة احتفاله بمراعاة النظير احتفالاً بادياً للعيان؛ لبناء الطرفة اللطيفة والفكهة العجيبة بناءً لغوياً تركيبيّاً رائقًا، وهو يعدّ نمطاً من أنماط الفكاهة اللاذعة، ولذلك، عرّفه البلاغيون –لغة– بأنّه: "التناسب والائتلاف، والتوفيق" واصطلاحاً هو: "أن يجمع الناظم أو الناثر أمراً وما يناسبه، مع إلغاء ذكر التضاد، لتخرج المطابقة، وسواء كانت المناسبة لفظاً لمعنى أو لفظاً للفظ أو معنى لمعنى، إذ القصد جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو يلائمه من أحد الوجوه"(٢). وإذا قصد المتكلم من ذلك السخرية والاستهزاء بمَن يخاطبه، وردَّ عليه الطرف الآخر بردٍّ مفاجئ غير متوقع، فهو لونٌ من ألوان الفكاهة. وعلى الطرف الثاني أن يتحلّى بسرعة البديهة، وحضور الخاطر؛ ليكون رده مجالاً للسخرية والضحك(٣). ومما روي عن عرقلة أنه كان "يجلس على حانوت خياط بدمشق يُعرَف بأبي الحسين الأعرج، وكان له طبعٌ في قول الشعر فدعا عليه الشاعر أن يصبح بعينٍ واحدة مثله على سبيل المداعبة، فهو يقول(٤):

ألا قُلْ للربيع أبي الحسين أراني الله عينك مثل عيني

فردّ عليه الأعرج قائلاً وقد عابه بنسبه، فنسب الشاعر هو حسان بن نمير بن عجل، وينسب إلى قبيلة بني كلب(٥):

ألا قُلْ لابن كلب لا ابن عجل أراني الله رِجْلَكَ مثل رجلي

" فخجل عرقلة وانصرف عنه".

سخرية الشاعر من الفقر والأصحاب:

يفيض شعر السخرية والفكاهة اللاذعة في الشكوى من الحرمان والفقر، فإذا لجأ الشاعر لتصوير هذه الظاهرة " في نفسه أو في مجتمعه المحيط به؛ فإنه يسوق الصورة المفجعة في إطار من الفكاهة والتهكم. وظاهرٌ أن السخط هو دافعٌ قوي إلى هذه السخرية المريرة في ذلك اللون من الشعر"(٦). ويرى الرافعي أن تصوير حالة الفقر التي يعيشها الشاعر، أو تناول صفات الناس المختلفة، منتقداً إياها عن طريق الفكاهة، تعدّ باعثا أساسياً من بواعث اللجوء إلى هذا النوع من الشعر(٧). ويلجأ الشعر إلى هجاء مَنْ " لا يجزون الشعراء الجزاء الوافر، وكثيراً ما كانت تحتدم بينهم المنافسات؛ فيفزعون إلى سهام الهجاء يصوبها الخصم منهم إلى خصمه... وقد يصبح الهجاء سهاماً قاتلة، وقد يصبح سخرية جارحة"(٨).

عانى الشاعر الفقر والحرمان كثيراً، وهو يطلب نوال ممدوحيه وعطاءهم، ويتوجّه بالسخرية المرة منهم؛ حين لم يعجبه هذا العطاء. فهو يسخر من ممدوحٍ له، وقد جازاه شعيراً على شعره، فأحسّ بدنوّ منزلته، وشبه ممدوحه بالبهائم التي يُستكثر أخذ الشعير منها. فهو يقول(٩):

يقولون لِمَ أرخصت شعرك في الورى فقلت لهم: إذ مات أهل المكارِمِ
أُجازى على الشِّعرِ الشَّعيرَ وإنّهُ كثيرٌ إذا استخلصتُهُ من بَهائِمِ

وقد كتب الشاعر إلى ابن السديد الأنباري كاتب الإنشاء في ديوان الخليفة، المتوفى سنه ٥٧٥هـ، وقد ذهب إليه في بغداد يطلب شقة، يُباهى بها الورى والحُسّاد، ويشكو من الفقر، وقلّة المأوى، ويصف حاله وسوء حظّه مع القريب والبعيد. ويتّخذ الشاعر من

(١)نفسه، ص ١٧.
(٢)الحموي، ابن حجة، خزانة الأدب، ج١، ص٢٩٣.
(٣)قزيحة، رياض، الفكاهة في الأدب الأندلسي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ص١٨٧.
(٤)الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١١، ص٢٨٢.
(٥)نفسه، ج١١، ص٢٨٢.
(٦)خريوش، حسين، الفكاهة الأندلسية- دراسة تطبيقية- منشورات جامعة اليرموك، ١٩٨٢، ص٤١.
(٧)الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج٣، ص١٤١.
(٨)ضيف، شوقي: عصر الدول والإمارات، الشام، ص٢١٩.
(٩)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٩٤.

وصف الشقة التي يريدها وسيلة للحديث عن صفاته وما اتّسم به من قلّة الحياء، وقصر القامة. ويُعلي الشاعر من شأن ممدوحه، من خلال الصور المتناقضة، والتلاعب بالمحسنات البديعية من جناس وطباق على سبيل الفكاهة والتندّر. ليظهر الشاعر المعروف في الشام بالشيخ الخليع، في حلّة جديدة في العراق. يقول الشاعر(١):

حاجتي شُقَّةٌ تَشُقُّ على كل بغيضٍ من الورى وحسودِ
ذاتُ لونٍ كمثل عِرْضِكَ لا عِرْضي وحظي، من القريب والبعيد
فابعثْنَها صفيقةً مثل وَجهي جَلَّ من صاغ جلدَه من حديدِ
واجعلْنها صفيقةً مثل وَجهي ولساني لا مثلَ قَدِّي وجيدي
كي أُرى في الشام شيخاً خليعاً في قميصٍ من العِراق جديدِ

التهكم عند ابن حجة الحموي:" نوع غزير من أنواع البديع، لعلوّ مناره، وصعوبة مسلكه، وكثرة التباسه في معرض المدح، وبالهزل الذي يراد به الجد"(٢). ويبدو ذلك عند الشاعر في سخريته من شخص يدعى أبا الفضل كان قد وعده بخروف، لكنه خلف وعده. وقد خلع عليه كل قبيح من الصفات، التي تبدو في أولها أنها مدح له. فمهجو الشاعر صاحب وجه جميل كالبدر، لا بضيائه بل بكسوفه، وحجبه عن الأنظار، فلم يعد يُرى من شدة السواد الذي يغشاه. وقوامه كالغصن الغض سهل الانكسار، وأما لحيته فهي كالنمل الذي نتف جناحه ولا يقوى على الطيران، وقد زادت من قبح شكل الشاعر ومنظره، ونفور الناس منه. ويشبه الشاعر جود أبي الفضل هذا وكرمه بجود البحر الذي لا ماء فيه. ولم يكتف الشاعر بذلك، بل تطرق للسخرية من أبيه، وما اتصف به من حلف اليمين الكاذب والبخل، ولا يجود بشيء مما يملك، إلا كتلك الجياد التي أعطاها للناس حين عجز عن علفها. والمُرتجى من أبي الفضل هذا خروف لا بدّ أن يكون قد خَرف وأصابه الجنون؛ لأنه مات بعد ساعات من وصوله إليه. يقول الشاعر(٣):

يا أبا الفضل بالنجفْ استمع كلّ ما أَصِفْ
لك وجهٌ كأنه البدرُ لكن إذا كُسِفْ
وقوامٌ كأنه الغصنُ لكن إذا قُصِفْ
وعِذارٌ كأنه النملُ لكن إذا نُتِف
وبنان كأنّهُ البحرُ لكن إذا نَشَفْ
وأبٌ أكذبُ الأنام لكن إذا حَلَفْ
كم جوادٍ وهبته حين أودى بلا عَلَفْ
إنّ من يرتجى خروفَك بالشعر قد خَرِف

قد يأتي الهجاء في معرض المدح في خلطة فنية واحدة قائمة على مبدأ الثنائية التعارضية، كما يتضح ذلك في قول ابن حجة الحموي:" وهو أن يقصد المتكلم هجاء إنسان، فيأتي بألفاظ مُوجّه ظاهرها المدح، وباطنها القدح –أي الذم والهجاء–"(٤). وعرقلة يخلط المدح بالهجاء حين يسخر من(القويضيّ) فيبدأ حديثه في المدح؛ لينقلب هذا المديح هجاءً لاذعاً. فقد ذكر أنّ القويضيّ تميّز بعلمه الذي حيّر العلماء الراسخين، وبذكائه الذي يشبه ذكاء الماعز التي ترعى النبات الخالص، و لكنه يتناول الغذاء الرديء، كناية عن جهله وغبائه. يقول الشاعر(٥):

صفات القويضيّ فتىً مشرقٍ يُحار له العالم الراسخُ

(١)نفسه، ص٣٥.
(٢)الحموي، ابن حجة، خزانة الأدب، ج١، ص٢١٥.
(٣)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٦٣-٦٤.
(٤)الحموي، ابن حجة، خزانة الأدب، ج١، ص٢٦١.
(٥)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٢٠.

ذكيٌّ ولكنه لاذن أصيل، ولكنه كامخُ

الفكاهات كما يقول ابن عبد ربه هي:" نزهة النفوس، وربيع القلب، ومرتع السمع، ومجلب الراحة، ومعدن السرور"(١). فالشاعر يمزج بين غرضين متناقضين هما الهجاء الساخر من الوزير العاضد الفاطمي شاور، وبين المدح للناصر صلاح الدين ووزيره شيركوه، الذي استطاع الوقوف في وجه شاور، وصدّ ظلمه وطغيانه وبغيه. ويشبه الشاعر شيركوه وصلاح الدين بعلي بن أبي طالب –كرّم الله وجهه– وأبنائه شبر وشبير. وأما شاور فهو كالكلب الذي يقضي على الرجال دون ذنب صلاح الدين كالأسد الذي ينقضّ على فريسته. وقد قتله وأراح الناس من شرّه وظلمه. ويبدو حقد الشاعر عليه حتى بعد موته من دعائه عليه بعدم الرحمة في قبره، وأن يُبقي معه مُنْكر ونكير؛ ليبقى في العذاب كما كان يُعذِّب الناس في حياته. فهو يقول(٢):

لقد فاز بالمُلك العظيم خليفةٌ له شيركوهُ العاضديُّ وزيرُ

كأنَّ ابن شاذي والصلاحَ وسيفَهُ عليٌّ لديه شبَّرٌ وشبير

هو الأسد الضاري الذي جلَّ خطبُهُ وشاوَرُ كلبٌ للرجال عقورُ

بغى وطغى حتى لقد قال قائلٌ على مثلها كان اللعين يدورُ

فلا رحمَ الرحمن تُربةَ قَبرهِ ولا زال فيها مُنْكرٌ ونكيرُ

ويسخر الشاعر من فتىً وقد وصفه بقلة العقل والصبر، وعيب عليه اسوداد خدّه من الشعر الذي نبت على وجهه، فيردّ الشاعر قائلاً بأن البدر لا يظهر جماله إلا وسط الدُّجى، وظلام الليل. فهو يقول(٣):

قالوا بدا في خدّه الشَّعرُ وأنت لا عقلٌ ولا صبرُ

واسودّ خدّاه فقلت اقصروا لولا الدُّجى ما حَسُنَ البدرُ

ويذكر الرافعي أن للشعر الهزلي مكونات رئيسة ثلاثة هي:" الحيلة الطريفة، والنادرة العجيبة، والكلمة المتهالكة"، ومتطلباته ثلاثة أيضاً، هي: النبوغ والذكاء والفطنة(٤). ويشكو عرقلة من صاحب له، وقد امتاز بحسن الخَلْق والخُلُق، يلقاه بسعة رحب حين يكون له حاجة عنده، حتى إذا انقضت حاجته انقلب عليه، وابتعد عنه وتركه وحيداً، كالجُرذ في بيت الخلاء. ويشبه الشاعر هذا الصاحب بالماء الذي يتلهفّ الظمآن لشربه، ثم يهدر ما تبقّى منه في الطرقات. يقول الشاعر(٥):

وصاحبٍ يتلقَّاني لحاجتهِ بالرَّحْبِ، وهو مليح الخُلُقِ

حتى إذا ما انقضت ولَّى وخلَّفني أخسَّ من جُرْذٍ في بيت مُرْتَفَقِ

كالماء، بينا ترى الظمآن يشربُهُ حتى يُبَدِّد باقيه على الطُّرُقِ

ويحذِّر عرقلة (طغريل السَّيّاف) وقد أصابه النحول من عاملٍ عنده يُدعى الثُّريّا الذي كان سبباً في نحس الشاعر، وما آل إليه حاله. فهو يقول(٦):

أيُّها السيَّاف هيَّا لا تدع في البيت شيَّا

داوِ قَرْناً صار ثُرْساً للدبابيس مُهَيَّا

كمْ نصحناك وقلنا انتبه حِراف ابن ثُرَيَّا

(١)ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٨، ص٨٢.
(٢)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٥٢.
(٣)نفسه، ص٤٥.
(٤)الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج٣، نفسه، ص١٣٨.
(٥)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٦٧.
(٦)نفسه، ص١٠٩.

التندُّر في الأطعمة:

اتخذ الشعراء من الأطعمة والولائم مجالاً للمداعبات الفكاهية في مجالسهم مع الأصحاب؛ لأنّ النفوس تنسجم مع ذكر ألوان الطعام والحلوى؛ وذلك لإضفاء جوٍّ من المرح والسرور على المجالس(١). يصِف الشاعر طعاماً يسمى التطماج- وهو ثمر شجر المغاث نبات بري ينبت في إيران تسحق جذوره، وتضاف إلى ماء السكر والسمن ومواد أخرى، فيصبح شراباً كالكراوية – جاء به طاهٍ بعد طول انتظار، وله أوراقٌ شفافة كالثلج، وعيدانه كالأسياخ التي تشبه الأتراس في يد الإفرنج، حيث يقول(٢):

ألا ربّ طاهٍ جاءنا بعد فترةٍ بأوراقِ (تطماج) أشف من الثلجِ

وقد غارت الأشياشُ فيه كأنها يُغالِقُ تركٍ في طوارِقِ إفرنج

ويصور الشاعر مقلاة بيض بحديقة النرجس حين يختلط فيها جمال الألوان الأصفر والأبيض. ويشبه صفار البيض بالكأس الذهبي، وبياضه بآخر فضيٍ شرب فيهما الشاعر. فهو يقول(٣):

أأحداق بيضٍ أم حديقة نرجسٍ أتت بيض مصفرٌ إلينا و مبيِّض

شربنا على التبريّ كأساً كلونه وأخرى على الفضيِّه من ذلك الفضيّ

التندّر في الأسماء:

الحذلقة في الكلام نوعٌ من الفكاهة يسلكها الشاعر؛ لأنه ينظر إليها أنها ضرب بديع من ضروب الإضحاك، وقد تكون مشكّلة من عيبٍ نفسي لا يتقبله المجتمع. والفكاهات التي اتخذت من الحذلقة اللغوية إطاراً لها، ومن التلاعبات اللفظية شكلاً مؤسساً لها، ومن التباديل المعنوية مضموناً مضحكاً- كثيرة في التراث العربي، كانت قد نتجت عن الاستقرار الحضاري والترف الفكري(٤) فالشاعر يسخر من اسم مبارك ابن منقذ "أحد أمراء صلاح الدين الأيوبي، وهو من آل منقذ المعروفين في شيزر توفي عام ٥٨٩ هـ".(٥) فمبارك هذا لا يحمل معنى اسمه (منقذ) وبذلك فلا يلام على شيء. وأما اسم (مبارك) فيشبهه الشاعر بمرض الجُدري المعروف، وهو مرض مشؤوم، ولكنه يسمى مبارك، حيث يقول(٦):

ضدُّ اسمه المنقذيُّ عن ثقةٍ فلا تلومنّه علو اللّوم

كالجُدريّ الذي يقالُ فيه مبارك وهو ألف مشئوم

وتكثر سخرية عرقلة من زملاء المهنة ورفقاء الكلمة، ومن بينهم الشاعر (وحيش الأزدي) متخذا من كنيته (أبي الوحش) رمزاً للتفكّه والاستهزاء، وذلك على سبيل النكتة والدعابة. فما يميز هذا الشاعر بين أهل الأدب، هو طول الذنب الذي تمتاز به الوحوش، وبيته الخشبي الذي لا يصلح إلا مأوى للوحوش أيضاً، فهو يقول(٧):

أبا الوَحْشِ جمَّلْتَ أهل الأدبْ لأنك أطولُ قومي ذنبْ

وكيف تكونُ صغيرَ المَحَلِّ وبيتك أكبر ما في الخشب

وكان أبو الوحش هذا كلما امتدحه الشاعر، يكتفي بتحريك رأسه مماطلاً بوعوده البعيدة التي تصلُ إلى" البرج الحادي عشر وهو برج الدلوّ" كناية عن المماطلة. وبُعد العطاء للسائل الذي لا يلحّ بطلبه(عرقلة) فهو يقول(٨):

يا مَنْ إذا جئتُهُ سئولاً ولستُ بالسائل اللجوج

حَرِّك لي مَوْعِداً بمطلٍ حادِيَ عَشرٍ من البروج

(١)قزيحة، رياض، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي، ص٢٥٣.
(٢)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص١٥.
(٣)نفسه، ص٥٨.
(٤)قزيحة، رياض، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي، ص٣١٤،٢٩٩.
(٥)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٩٤.
(٦)نفسه، ص٩٥.
(٧)نفسه، ص١٤.
(٨)نفسه، ص١٧.

ومن شدة غضب الشاعر على أبي الوحش هذا، وصل به الأمر إلى إن يتندّر بزوجه، التي تُكنَّى أم أبي الفتح. حيث يقول[١]:

وقال وُحَيْشٌ: لي في منزلي مكبوبةٌ ظاهرة الملح

فقلت ما عندك مكبوبةٌ إن لم تكن أُمّ أبي الفتحِ

الفكاهة في رأي الشاعر الناقد أدونيس حكاية رأي اختصرها بقوله إنها: "شعر ينتصر به الإنسان على صمم الأشياء، وعلى اللانهاية العمياء، وعلى الطبيعة الميتة. والفكاهة لا تُروّض ولا تُحدَّد، ولذلك تمنح الفن والحياة نبرة الجموح وحيوية يظل العالم دونها غارقاً في جموده الداكن"[٢].

وهذا إنسان يلقب بالعفيف، أصابته سلاطة لسان الشاعر، معتبراً أن لقب العفيف هذا جاء من قبيل التصحيف من الكاتب. فقد بخلت أيدي الكاتب هذا عن كتابة الحروف؛ ليصفه بالعفيف بدلا من العقيق. ولا خير فيه إذا روي الاسم مُصحَّفاً حين تتشابه الحروف، وإن بخل الكاتب بكتابة حروف اسمه صحيحة، فلا تجود يداه على شيء بعدها. يقول الشاعر[٣]:

عجّ بالعَقيقِ وَعَدِّ عن تصحيفهِ لا خير فيه إذا استقلَّ مُصَحَّفا

يا كاتباً بخلت يداه بأحرفٍ ماذا تجود إذا منعت الأحرفا

ويشكو الشاعر من رجل ثقيل يدعى(عُبيد) " وقد اجتمع القائد صلاح الدين مع هذا الرجل يوم الزلزلة في حماة سنة ٥٥٢هـ، وقد تهدّمت كلها عدا البيت الذي كانا فيه"[٤]. وكانت نجاة صلاح الدين بصُحبة عُبيد في هذا اليوم؛ يوم الزلزلة، هو كل ما حققه الشاعر منه. يقول الشاعر[٥]:

قُل لصلاح الدين ربّ الندى بَلِّغ عبيداً" كلُّ ما أَمَّلَهْ

بثِقلهِ لما تصاحبتما سلَّمك الله من الزلزلة

السخرية من الحكام والوزراء:

وجد الشعراء في شعرهم مَخرجاً للتعبير عن مكنوناتهم الحاوية ظلم القادة والحكام وغدرهم؛ فكثر في شعرهم شكوى الدهر والزمان، ونقد المسؤولين، فشهّروا بهم وبأعمالهم[٦]. وتبدو سخرية الشاعر من ابن مالك العقيلي "صاحب قلعة جعبر، وهي قلعة مطلة على الفرات قريبة من الرقّة اسمها القديم: دوسَر"[٧]. ويدعو الشاعر على مُلك ابن مالك هذا بأن يعاجله الانصراف. وقد قلَّ رجاؤه، وذهبت هيبته، ويشبهه الشاعر بدودة الخلا التي لا تضرّ ولا تنفع. فهو يقول:

لَحا الله مُلْكاً يحتويه ابن مالك وعاجَلَه في ساحة القلعةِ القَلَعُ

فتىً لستَ ترجوه، ولست تخافُهُ كدود الخلا، ما فيه ضرٌّ ولا نفعُ

إن تغيير الحروف والكلمات عند الشاعر وإبدالها، ومن ثَمَّ، تغيّر معانيها، هدفٌ من أهداف التندّر والتفكّه عند الشاعر" ولعل السبب في ذلك هو إدراكنا بطبيعتنا صحة التعبير الأول، ثم نسمع التعبير في صيغته الجديدة بعد تلاعبنا به، وعند الموازنة السريعة فإننا ندرك أن المتكلم يهدف إلى التفكّه والإضحاك"[٨].

برع الشاعر في التلاعب بالألفاظ في سخريته من طغريل، وقد قتل الشاعر في سبه وتعنيفه. ويدعو الشاعر عليه بأن يموت طعناً بالرمح. ساق لنا ذلك من خلال الإتيان بجناس التصحيف في البيت الثاني في كلمة(سُكراً) ؛ ليتغير معناها إلى الطعن بعد تصحيفها إلى(سُكراً)، ويصل الشاعر إلى المعنى الذي يريده بعد التصحيف المذكور. يقول الشاعر[١]:

(١)نفسه، ص٢٠.
(٢)أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٢م، ص٧٠.
(٣)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٦٤.
(٤)نفسه، ص٨٨.
(٥)نفسه، ص٨٨.
(٦)سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، ص٢٤٥.
(٧)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٦٠.
(٨)قزيحة، رياض، الفكاهة في الأدب الأندلسي، ص١٥٣.

قولا لطغريل، ولا تقصرا في سبِّه عني وتعنيفه
قَتَلتنا بالصِّرْفِ سُكراً فلا برحت مقتولاً بتصحيفه

وجملة القول في موضوع الفكاهة يظهر فيما اختصره الرافعيّ في قوله إنّ: "الانتقاد قوة إلهية في قريحة الشعراء، فإذا أردنا هذا المعنى الجدّي، فالشاعر الذي لا تكون فيه هذه القوة يشبه أن يكون على نقص من تركيبه في نظر الحكيم المتأمّل، كائناً من الكائنات المُضحكة"(٢).

الخاتمة

إن الفكاهة الأدبية، كما بدا واضحا ذلك في حنايا البحث، لا يكاد يخلو منها عصر من عصور الأدب التاريخية المختلفة، فقد تماشت مع ظروف العصر ومتطلباته وتواترت كثرة وقلة. ولُحظ أن الفكاهة المتعددة الدلالات، والمتنوعة المصادر، والكثيرة المضامين، قد ازدهرت في العصر الأيوبي ازدهارا كبيراً، وانتشرت فيه انتشاراً واسعاً، ووجدت فيه لأسباب عدة، منها: التخفيف من المعاناة الاقتصادية، والحدّ من الضغط النفسي والاجتماعي والسياسي الذي عاناه الشعراء من قيود الحكام وظلمهم، وللترويح عن النفس البشرية وإسعادها.

واتضحت صورة الفكاهة – الآنفة الذكر– في العصر الأيوبي من خلال تحليلها تحليلاً أدبيا ناقداً في شعر عرقلة الشاعر الفكه الساخر، الذي أظهر وسائله المستثمرة في بناء الفكاهة الأدبية الخاصة به، التي منها التلاعب بالألفاظ والمعاني والصفات والأشكال، والتناصّ مع السياقات المتعددة، الدينية والتاريخية وغيرها، فيغير فيها كيفما يشاء، ويصهرها في بوتقته الشعرية المائزة؛ ليعكس لنا صورة صادقة عن صفاته الحقيقية التي أتى على ذكرها المؤرخون في مصنفات عدة. فكانت الفكاهة غرضا بارزاً في شعره. وعلى الرغم من ازدهار الحركة الأدبية في العصر الأيوبي، وفي زمن الحروب الصليبية بشكل عام، إلا أن هناك الكثير من الشعراء المغمورين يجب أن تُوجّه إليهم الأنظار في البحث؛ ليأخذ هذا العصر حقه من الدراسة كغيره من العصور الأدبية.

المصادر والمراجع:

١. الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ج٥.
٢. أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٢م
٣. الأصفهاني، العماد: خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، تحقيق د. شكري فيصل، المطبعة الهاشمية بدمشق، ط١، ج١، ١٩٥٥م.
٤. توفيق، نجيب، الفكاهة والظرفاء أيام زمان، المكتبة الأزهرية للتراث، ط١، ١٩٩٨–١٤١٨هـ.
٥. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البخلاء، ط١،، ط٢، ١٩٨٧م.
٦. جروس، بُرس، أحلى طرائف ونوادر الجواري والنساء، طرابلس، لبنان.
٧. أبو جودة، بديع وآخر، اضحك مع ألف نكتة ونكتة، دار الجودة، معهد الجودة، لبنان، ط١، ١٩٩٧.
٨. الجوهري، معجم الصحاح.
٩. حاوي، إيليا، فن الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٨م.
١٠. الحموي، ابن حجة، خزانة الأدب؛ شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٩١، ج١.
١١. خريوش، حسين، الفكاهة الأندلسية– دراسة تطبيقية– منشورات جامعة اليرموك، ١٩٨٢.

(١)الكلبي، عرقلة، الديوان، ص٦٣.
(٢)الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، ج٣، ص١٤٢.

١٢. الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م، ج٣.
١٣. الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار المعارف للملايين، بيروت، ط١٤، ١٩٩٩، ج٢.
١٤. سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٧.
١٥. الصفدي، صلاح الدين خليل بن إيبك: الوافي بالوفيات؛ تحقيق أحمد الأرناؤوط وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ج١١، ٢٠٠٠م.
١٦. ضيف، شوقي: عصر الدول والامارات، الشام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م.
١٧. عبد الكافي، إسماعيل عبد الفتاح، الفكاهة والألوان، هبة النيل العربية للنشر والتوزيع، الجيزة، ٢٠١٠.
١٨. ابن عبد ربه، العقد الفريد؛ تحقيق محمد عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م ج٨.
١٩. ابن العماد، شذرات الذهب، دار الفكر، ج٤.
٢٠. الفقي، محمد كامل، الأدب العري في العصر المملوكي، دار الموقف العربي، مصر.
٢١. قزيحة، رياض، الفكاهة في الأدب الأندلسي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
٢٢. قزيحة، رياض، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
٢٣. الكلبي، عرقلة: حسان بن نمير، الديوان؛ تحقيق أحمد الجندي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م.
٢٤. ابن منظور، معجم لسان العرب.
٢٥. اليافي، عبد الكريم، دراسات فنية في الأدب العربي، مكتبة لبنان ناشِرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

مواقع الكترونية

26. http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=4728&idto=4728&bk_no=50&ID=4785 تفسير الطبري.
27. http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar معجم المعاني الجامع.